أحببته لأخرى

د. نهلة التهامى- مصر

فتحت عنان مدونتها الالكترونية وأطلقت لنفسها العنان. تكتب بها تنهدات روحها الحارة، وحدها من تبوح لها بمكنون حبها اليائس. أحبت حسام لأعوام دون أمل أو ملل. كانت المسافة بينهم بعيدة بالرغم أنهم يطونها يوميا بأحديثهم، فالبعد بعد الروح لا الجسد. حسام زميلها العتيد في الدراسة والعمل الذي يلقيها باسما كل يوم هو أبعد ما يكون عنها. يعملان سويا في خدمة عملاء أحدى الشركات منذ أعوام. يحتل تفكيرها طوال الوقت؛ تنشغل بأدق تفاصيله وتأسرها أقل إيماءاته وها هي تفرغ ما أختزلته منه في ذاكرتها بمدونتها.

لا تعلم في أي مرحلة أمتلك حسام قلبها فهم طالما جمعتهم مناوشات الصداقة والأخوة حتى استيقظت يوما على حبها العنيف له دون أن يدري هو أي شئ عن تغير مشاعرها تجاهه. أحيانا تحقد عليه لعدم أحساسه بها ثم تعود لتلوم نفسها وسوء ظنها فما ذنبه فيما أملاه قلبها! حبها له تغذى على مواقفهم سويا وليس وليد إعجاب عابر.

عادت لها ذكرى ما كتبته منذ عام: اليوم وخزتني دموعي لمرآه. كان يبتسم بدلال لزميلتنا الجديدة سارة. راقبته وقلبي ينتفض لضياعه مني. لمعة عينه تلك التي طالما حلمت بها ها هو يمنحها لسواي. تابعته وهو يعلن لها عن حبه. تابعت

خجلها وسعادته بفرحتها؛ تابعت لأخر نفس إزهاق حلمي. هل أحبته هي حقا كما نطقت عيناها؟! أراه بعيني وأراه بعيناها ولكنها وحدها من أثرته نظراتها. لقد سلبت سارة حلمي مني. اليوم ودعت حبي بعد أن أتى إلي ليأتمنني على حبه ويشاركني فرحته. اليوم يذهب لمنزلها ليخطا معا خريطة حياتهما سويا.....

لم أدع الدموع توخزني كالماضي بل تركت لها العنان. كانت تلك الذكرى هي بداية الألم. كنت أدعو الله ليل نهار أن يريح قلبي من آلامه ويقويني لأحتمل رؤيته مع أخرى. كم تمنيت النسيان وتخلي قلبي عن حبه. بذهابه لأخرى ذهبت روحي. كان حافزي للحياة فلما ذهب أنطفأت الحياة مني. لقد أفرطت في حبي له حد الادمان، أدمنت بسمته وعفويته، أدمنت وجوده. لم أبحث بعده عن ترياق للحب كما لم أحرم نفسي من صحبته فأنا مازلت صديقته وزميلته وكاتمة أسراره! رضيت لقلبي بشذف الحب وفتات الاهتمام. معه، فقط معه أحيا. معه حين أبتاع لها نفيس الهدايا، ومعه لتجهيز عشهم الذهبي. لم أكرهها ولم أكرهه. فدونهما تأسرني الغربة. الغربة كالبعد ليست بالمكان بل هي غربة النفس؛ فحنيني غربتي وسكني ومسكني.

في بداية زواجه شعرت بالغربة حتى عن نفسي، لم أعتاد على غيابه عني. أخرى تبتسم وتعمل، تتحدث وتغضب، تهدأ وتحيا دون حياة. كانت روحي فارغة بغيابه. حاولت ترميم نفسي وإعادتي للحياة كسابق عهدي لكنني فشلت. لا أعلم كيف تأقلمت وكيف تعايشت معهم حين عادا؟! الوقت لم يمحي أثر فراقه ولم يخفف

الألم بقلبي ولكنه طمسهم برماده. ربما حنيني له غلب ألمي. أقتنعت إن لابد من تقبل الأمر الواقع وحزني على ما لم تصله يداي لن يعيده. عشنا ثلاثة جمعهم الحب. لم أحاول أبدا التفرقة بينهم بل كنت مرسال ووسيطة غرامهم. أحببت غريمتي وعلمتها كيف تحبه فأنا من أسقيتها أعوام صداقتي له. حقا نزعت عن عيني غشاوة الأنانية وأتسعت مدى رؤيتي ليشملنا جميعا. فسعادتي من سعادته لسعادتها، هكذا مرت بي الأيام.

من الممكن أن يتغير كل شئ في أى لحظة وإلى الأبد. لم أكن أؤمن بذلك ولكنني الأن أحيا به. كانت البداية بالموت؛ موت والدي. أحسست بالفراغ والفقد، بأن جزء مني رحل دون وداع ودون عودة. لي شقيقان أحاطوني بحبهم وخوفهم علي وشملني حسام حينها برعايته. أحتوى حزني وفاضت معه روحي بكل ألامها. كان وجوده معي خير عزاء. سكبت دموعي أنهارا حتى فرغت وسكن قلبي عن ألمه. عشت ،نعم أستمرت بي الحياة وعشت. تستمر الحياة بعد الفقد لا البعد. تستمر حين تيأس من وجود بديل. تستمر حين توقن من إنعدام الأمل بالعودة، فقط حينها تكمل راضيا أو مرغما حياتك...

بعد عذاب سنوات من الحب اليائس دبت الحياة بقلبي الميت. بدأت ألاحظ تزايد ملاطفة حسام لي. لم تكن بمثل عهدي بمشاكساته بل زادت رقته واهتمامه بي، بي أنا عنان صديقته العتيدة!! لم أصدق بل لم أحلم بمثل هذا التحول أصلا. هل أشتعل حبي بقلبه فجأة؟! أرتبكت وغمرتني أحلامي الوردية حتى أغرقتني

بثليجها. ما بين الأمل بتحقيق المحال وتصاعد الشعور بالذنب تقلبت على جحيم أفكاري. أي طريق أسلك؟ هل أقترب أم أنزوي بعيدا؟ أأهرب من حبي بعد أن عثر علي أخيرا؟ هل دأب قلبي على الهجر فلم يعد يهتم بدفء الوصل؟

عانيت من الصراع داخلي دون أن أجرؤ على أتخاذ قرار. كنت سعيدة معه، بملاحقة نظراته لي واهتمامه بتفاصيل يومي. وحده الله من يعلم كم إلتزمت الصمت وكم حاولت قتله بداخلي، وكم حاولت الفرار منه ورضيت بما قدر لي ولم يكن الرضا أبدا سهلا، فهل آن لي أن أخذ أخيرا نصيبي من حبه؟ لم أستطع أن أصده فقد تركت لنفسي ترتوي باهتمامه وسقيت قلبي بأمل حبه. كنت سعيدة سعيدة ولم أبخل عن نفسي سعادتها.

لم تستمر وردية حياتي طويلا. فبعد فترة تغيرت مشاعره واسلوبه معي. يوما أرى بعينيه الحب والحنان ويوما يتجاهلني كليا. كدت أجن لتذبذبه. هل يلعب بي وبقلبي أم ربما يخشى إنكشاف حبه لي أمام زوجته؟! أنا أيضا تغيرت. لم أعد أنام ليلا من تأنيب ضميري. أفكر فيه وفي زوجته؛ ما ذنبها وأي جرم أقترفته حين تزوجته؟ لم تعلم بحبي له؛ حتى انها أتخذتني صديقة واخت لها. لم أعهدني يوما بخائنة وبسببه أصبحت!!

لم يفتر حبي له وإن تداعت ثقتي به فبعد مرور اسبوع جفاء ما له عندي من أعذار. ربما هو الندم؟! حاولت كثيرا أن أطرد أفكاري السوداء وخوفي الدائم من الغد؟ فأنا لم أحتال لأكتسب قلبه؛ إنما جاء هو إلي ليوقظ قلبي من سباته. فهل أوقظ

ضميري من سباته؟ كان الاغراء عظيما والامتحان جد عسير. فكل حزني هذا لابد أن زوجته تجرعت أضعافه، بسببي. لقد رضيت بمشاركتها حبه ولكن هل رضيت هي؟ أم إن ابتعاده هو أختياره ليخرج من ثالوث حبنا المرضي.

هل أحذرها حتى لا يضيع منها؟ هل أواسيها لفقدها حبه أم أواسي نفسي لتخلي عن حبي؟ ورغم هدوئي الظاهر أمام الجميع ولكن عقلي مزدحم! مزدحم بالذكريات، بالتفاصيل وبمعركة قلبي وعقلي التي لا تنتهي، وبرغم صمتي يغمرني الضجيج. نعم سأتخلى عنه. لن أعود لأحترق بحبه وأسقى بجفاءه. سأترك عملي، سأبتعد. حبي قدر؛ لا يد لي فيه ولا حكم لي على من هواه قلبي لكني لن أكون السبب في هدم أسرة. لن أخذ حبيبي من زوجته. سأرحل من حياته حتى وإن سكن الفؤاد بذكراه، سأحتفظ بإرثي من ذكرياتنا سويا لأخر العمر.

فتح حسام شقته فوجدها صامتة. تردد في الدخول، أيبدأ وحدته من الأن؟ زفر وأغلق الباب بعويل تمنى لو أنه صارخه. هبط للدور السفلي حيث منزل والديه لينعم بدفء الونس وإن غزا الهجر روحه. ما أن فتح منزله حتى ضمدت جراح روحه بصخب ابنه وهو يلعب مع والديه. جرى عمر تجاهه فألتقطه وقذف به في الهواء. تلك الضحكات هي ترياقه. لحظات وأحتضنه وجلس يرثي حاله. ما ذنب الصغير ذو العامين ليعيش دون أمه، وما ذنبه هو ببيت متداعي؟ ألم يحلم بحياة سعيدة وأسرة هانئة؟ فأين ذهب الحلم وقد أستمت لتحقيقه؟! أخذت أمي عمر وألقت علي نظرة حانية وإن لم تخل من ألم أحذرك من ويلات قرارك!

أغلقت غرفتي القديمة علي وأفكاري. ليتني سمعت لنصيحة أمي حين ألحت علي لأترك سارة. سارة زميلتي وحبيبتي لسنوات دراستنا الجامعية الأربعة. جمع بيننا كل شئ؛ الحب والصداقة والعشرة والأخوة أيضا. خططنا لحياتنا سويا بكل تفاصيلها إلا من شئ واحد؛ مرضها. بالرغم من شدة علاقنا وقربنا إلا أنني لم أعلم بمرضها إلا في عامنا الثالث. تلك الجميلة القوية ذو الرأي النافذ هي أيضا ذو نفسية ضعيفة. رقيقة هي كفقاعة صابون قد تنهار إثر كلمة. خلاف عابر بيننا أسقط قشرتها التي طالما أحتمت بها. فجأة ونحن نتعاتب كأي حبيبين فقدت الوعي. هلعت وتوقف قلبي حتى عادت لوعيها وإن ظلت صامتة ضعيفة. وصلتها لمنزلها ولم تتفوه بحرف. كدت أجن عليها ولكنها لم ترد على أي من محادثاتي. أخيرا أستجمعت شجاعتي وذهبت لمنزلها للسؤال عنها فهي مختفية لأكثر من اسبوعين دون خبر.

استقبلتني والدتها بإرتياب في أول الأمر ثم رقت عندما لمست لهفتي وخوفي على ابنتها. الكثير من الأحاديث المتداخلة عن دلع الابنة الوحيدة واعجابها بي الذي صرحت لوالدتها عنه، حتى لم أعد أعرف إلام ستنتهي المقابلة أبخطبتي لسارة (دون أن أبادر أنا بالسؤال) أم ستمنعنا من الاسترسال بحبنا؟ جاء الرد من أخيها محمود الثائر؛ أليس هذا هو سبب مرض سارة؟! انخلع قلبي؛ سارة مريضة وأنا السبب. تعالت الأصوات وأرتفعت الاتهامات حتى فهمت. رقيقتي لم تحتمل صدمة خلافنا فإنهارت عصبيا.

عادت سارة لي مشرقة كعادتها وإن لم تغب الغيمة تماما. بات زيارة الطبيب شهريا حتميا والتناسي لأدويته يحيلها لشبح بائس منهار. كنت أصبحت فردا من أسرتها ومهدت لأسرتي لخطبتها فور انتهائنا من الدراسة ولكن لأمي رأي أخر. رفضت ونصحتني بالتروي قبل أن أقيد حياتي بحبيبتي المريضة. لم أستمع لها بالطبع، وأزدادت علاقتي بسارة حتى تشاجرنا قبل خطبتنا بأيام. هنا ظهرت لي أخرى أهتز قلبي منها خوفا. لاأعلم كيف تضاخم الأمر حتى أتخذنا قرار الانفصال. تركتها وعلى بعد خطوات رأيت من بعيد من يحملونها بعد أن سقطت مغشية عليها.

هواجسي سيطرت علي وطويت صفحة سارة للأبد. لم أسأل عنها وأهتممت بعملي في مركز لخدمة العملاء. لم أعلم أن قلبي لم ينس سارة قط حتى رأيتها وقد عينت معي بنفس المكان. كأن شهور فراقنا لم تكن، عدنا لحبنا وقررنا إتمام زواجنا بأقرب وقت. لم يمهلنا الزمان طويلا فمع أضطرابات الحمل النفسية توفى والدها وسقطت هي مريضة حتى أختلقت لها شخصية أخرى أخونها هي معها اسمها عنان. لم أعد أحتمل الحياة تلك. مللت من قسم الحب وعهود الوفاء لكلا من سارة وعنان ولا أجد أحداهن فعليا في حياتي. تركتنا سارة أنا وعمر وعادت لمنزل والدتها كعنان. ظننت يوما أن رزقني الله بحب متجدد لأنثتين بجسد واحد ولم أعلم إنه ابتلاء. ماذنب صغيري وما ذنبي وما ذنب سارة بمرضها؟ ربما لإنفصالنا بد حتى تعود لي فقط إحداهن.